تاريخ استقبال المقال: 2016/08/19 تاريخ قبول نشر المقال:2016/09/15 تاريخ نشر المقال: 2016/10/15

المرض الاجتماعي...انطلاقة نحو بناء نظرية التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي

د.محمد بن عمارة، جامعة بشار

أ. موساوي سمية، جامعة لونيسي علي

البريد الإلكتروني : soumiadr2018@gmail.com

benamara39@gmail.com

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على واحد من بين أعلام العالم العربي والإسلامي المتمثل في المفكر "مالك بن نبي" وذلك من خلال محاولته في صياغة نظرية التغير الاجتماعي انطلاقا من تشخيصه بما أسماه المرض الاجتماعي وللوقوف على احد أهداف الملتقى حاولنا رصد محاولة من بين المحاولات العربية في صياغة نظرية عربية حول التغير الاجتماعي بالرجوع إلى مفهوم المرض الاجتماعي، وللغوص في فحوى النظرية طرحنا الإشكالية التالية :

– ما هي الأسس التي بنى عليها مالك بن نبي نظريته حول التغيير الاجتماعي ؟

الكلمات المفتاحية: التغير الاجتماعي، المرض الاجتماعي، النظرية الاجتماعية .

Social disease breakthrough towards building social change when Malik bin Nabi theory.

Abstract :

This paper aims to shed light on one of the flags of the Arab and Muslim world of the thinker Malik bin Nabi by his attempts in the formulation of social change theory, and so out of diagnosed what he called social disease and to find out the one the goals of the forum tried to monitor an attempt by the Arab attempts in formulating the Arab theory about social change by reference to the concept of social disease and diving on the substance of the theory put forward the following problem:

What are the foundations on which the Malik bin Nabi his theory of social change?

Key words: social change, social disease, and social theory.

مقدمة :

يعد المفكر مالك بن نبي من الأعلام الذين درسوا عمق المجتمعات, بدءا من مجتمعه لينتقل بذلك إلى المجتمعات الأخرى. ولعل الإسلامية كانت في مقدمتها من خلال الاطلاع على طيات صفحات تاريخها، ومن ابرز الإشكالات التي حركت ضمير مالك "بن نبي" ما سبب تخلف العالم الإسلامي على حساب العالم الغربي ليخرج بذلك إلى عدة نتائج توجت بعدها بدراسات تحليلية للتعرف على كنهها، فكانت كتاباته من خلال مؤلفاته: شروط النهضة، ميلاد مجتمع،.......الخ, وابرز ما اكتشفه من خلال دراساته التي تستحق أن ترقى إلى نظرية اجتماعية لان ميزة النظرية الاجتماعية نسجها في مجتمعها الأصلي لتصلح على التطبيق الصحيح فيما بعد هي نظرية التغيير الاجتماعي التي تحدث عنها "مالك بن نبي" في كتاباته بحيث تعد واحدة من بين الاجتهادات العربية الإسلامية.

ومن خلال طيات هذه الورقة البحثية سوف نعالجها في النقاط التالية :

1. مدخل مفاهيمي لمفاتيح المداخلة .
2. تشخيص حالة العالم الإسلامي وتبيان أسباب المرض الاجتماعي .
3. فحوى نظرية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي .
4. شرح ثلاثية مالك بن نبي حول التغيير الاجتماعي .
5. رصد قانون الدورة الحضارية كنموذج للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي .

1.مدخل مفهمي لمفاتيح المداخلة .

أ. مفهوم التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي:

إن التغير الاجتماعي وفقا لمنظور "مالك بن نبي" يتوقف على جملة من العوامل و الشروط يمكن أن نستشفها مبدئيا من تلك المعادلة البسيطة التي وضعها والمتمثلة في:

حضارة =إنسان + تراب + زمن[1]

ب. مفهوم المرض الاجتماعي عند مالك بن نبي :

يعزى استخدام هذا المفهوم لأول مرة إلى "مالك بن نبي" وهو يقصد به عملية تمزق في شبكة العلاقات الاجتماعية لمجتمع ما فتصبح بذلك عاجزة عن القيام بأي نشاط مشترك بفعالية، إلى أن ينتهي به إلى التحلل الكلي بعد أن يحتل المرض جسه الاجتماعي .[2]

ج. مفهوم النظرية الاجتماعية :

هي جملة أراء ونظريات المفكرين في ميدان علم الاجتماع وكذلك المدارس والمذاهب الفكرية والمفاهيم الاجتماعية، والبحوث والدراسات التي تدخل في حقل علم الاجتماع كأعمال ابن خلدون، هوبز، كونت، لوك، روسو، دوركايم، فيبر، ماركس، بارسونز، ومختلف الاتجاهات والمذاهب في علم الاجتماع.[3]

- إن أية دراسة مهما كان نوعها لا بد لها من تلك المفاهيم التي تعد مفاتيح هامة لها وهي تذلل صعوبات عدة كونها تعطي الصورة الحقيقية أو بالأحرى تعطي المعنى المراد الوصول له فهذه الورقة البحثية حاولنا فيها تبيان المصطلحات التي استخدمها مالك بن نبي في حديثه عن الحضارة .

2. تشخيص حالة العالم الإسلامي وتبيان أسباب المرض الاجتماعي:

يرى "بن نبي" وجود ضعف واضح في العالم الإسلامي، ويستخدم مصطلح المرض بدل مصطلح الضعف، وهو يرى أن بداية العلاج تتم بتحديد أسباب المرض لا أعراضه وأن أي محاولة لمعالجة أعراض المرض لا يمكن أن تؤدي إلى علاج الجسم المريض، حيث يرى أنّه من الواجب أن نضع أعيننا على المرض بالمصطلح الطبي لكي تكون لدينا عنه فكرة سليمة، لأن الحديث عن المرض والشعور به لا يعني بداهة الدواء, وإن كل محاولة للتعرف على الأسباب وراء ضعف المسلمين "لم يكن فيها تحليل منهجي للمرض بمعنى دراسة مرضية للمجتمع الإسلامي، بحيث لا تدع مجالا للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون, ألا وهو الضعف الحاصل من خلال تأثير الأمراض الفتاكة على هذا الجسم الإسلامي، وإن الأطباء كانوا يعالجون أعراض المرض كطبيب يواجه حالة مريض بالسل الجرثومي، فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما يهتم بهيجان الحمى عند المريض. والمريض نفسه يريد أن يبرأ من آلام كثيرة من الاستعمار، من الأمية، من الكساح العقلي وهو لا يعرف حقيقة مرضه، بل شعر بألم، فاشتد في الجري نحو الصيدلي، يأخذ من آلاف الزجاجات، ليواجه آلاف الآلام، فالعالم الإسلامي يتعاطى هنا حبة ضد الجهل، ويأخذ هناك

قرصاً ضد الاستعمار، وفي مكان قصي يتناول عقاراً كي يشفى من الفقر، فهو يبني هنا مدرسة، ويطالب هناك باستقلاله، وينشئ في بقعة قاصية مصنعاً، ولكنا حين نبحث حالته عن كثب لن نلمح شبح البرء لأن ذلك كان علاجاً لأعراض المرض، لا جوهره

. ومن هنا وجدنا "بن نبي" يقوم بتشخيص المرض ليعرف سببه الرئيس فيرجع كل الأعراض إلى سبب واحد ووحيد وهو الخلل العقائدي.

I. الخلل العقائدي:

إن "بن نبي" يبين أن أساس المرض متمثل بالخلل العقائدي، فهو الذي أدى إلى ضعف المسلمين أمام الحضارة الغربية ويذكر من صور ذلك الخلل:

أ. الوثنية:

لا يقصد ابن نبي من طرحه مصطلح الوثنية عودة العالم الإسلامي إلى عبادة الأصنام المعبودة قديماً سواء كانت من الحجر، أم القمر، أم الخشب، بل يرى تطور تلك العبادة تبعاً لتطور أفكار البشر ويقول في ذلك, فإذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية فإن الجهل في حقيقته وثنية، لأنه لا يغرس أفكاراً بل ينصب أصناماً، وهذا هو شأن الجاهلية فليس من باب الصدفة المحضة أن تكون الشعوب البدائية وثنية ساذجة، ولم يكن عجيباً أن مر الشعب العربي والإسلامي بتلك المرحلة، حين شيد معبداً للأقطاب (الدراويش) المتصرفين في الكون، ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم، والعكس صحيح وهو يرى أن ذلك أكثر وضوحا في الفكر الصوفي المنحرف حيث أهل الفتة والدروشة والرقص، وبلع العقارب، ونسج الخرافات والأوهام، والجنة التي يوعد بها المريدون بلا كد ولا عمل، إلا ما يتلمسون من رضا الشيخ القطب.

ب. عدم الفعالية :

يرى "بن نبي" أن المسلم لم يتخلّ مطلقاً عن عقيدته، فلقد ظلّ مؤمناً متديناً، ولكن الخلل كان في أن العقيدة قد تحررت من فاعليتها وتأثيرها في سلوكه الاجتماعي، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته مع أفراد المجتمع الذي يعيش فيه أي أن هناك انفصال بين العقيدة والسلوك، ولتوضيح ذلك فلننظر إلى فكرة العقيدة ذاتها، وهي التي نعرف تأثيرها العميق في ضمير المسلمين الأوائل هذه العقيدة لم يعد لها اليوم التأثير نفسه، وقوة التوجيه لسلوكنا الفردي، ولأعمالنا، وأفكارنا ومشاعرنا فالبعض يكرر القول ":إننا لم نعد مسلمين إلا بشهادة الميلاد" فهذه هي الحقيقة وذلك نتيجة ما نراه في عدم فعالية العقيدة.

ويضرب مثلاً على ذلك أولئك الذين يشهدون صلاة الجمعة، وينصتون إلى خطبتها فبعض الخطباء تكون كلماته مؤثرة، تجعل بعض المصلين ذائباً في دموعه، بل قد نرى الإمام نفسه قد خنقته شهقاته وانفعالاته، فإذا قضيت الصلاة بقيت الحقيقة التي زلزلت كيانه محبوسة في المسجد، ولم تتبعه إلى الشارع،

أي هناك انفصال بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي، هناك افتراق بين المبدأ والحياة، لقد أصبح المسلم يعيش هذا الانفصال، والتجربة اليومية برهنت على أمرين:

أن العقيدة الإسلامية لم يعد لها تأثير أو فاعلية في سلوك الفرد كما كانت على عهد النبي وأصحابه أن العقيدة الإسلامية تستعيد دورها بصورة تلقائية، في محيط المسجد فقط. ويستخلص من الأمر الأول، أن المسلم لا يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، ابتداء من اللحظة التي يغادر فيها المسجد، فهو يسقط تحت سطوة قانون العدد، وبدلاً من أن يؤثر على الوسط طبقاً لمثله الأعلى ومبادئه، نجد أن الوسط هو الذي يؤثر عليه، فيجرده من مثله إلى ويهدم مبادئه.

ويستخلص من الأمر الثاني، أن المسلم يعثر على استقلاله في جو المسجد، إذ يكون اجتماع أشخاص، يوجد تأثير الوعظ لديهم مثل الظروف التي ظهر فيها تأثير العقيدة في تلك الإسلامية على عهد المسلمين الأولين، وقد كانت العقيدة لدى صحابة النبي الظروف لا منظمة لنشاطه فحسب، وإنما موجهة لأداء نشاط مشترك، نعرف تاريخه.

فإذا ما شعر المسلم المعاصر في جو المسجد أن العقيدة الإسلامية تسيطر على غرائزه، ثم يضل عن هذا الشعور بمجرد خروجه إلى الشارع، فمعنى ذلك أنه لا يجد في الحياة الإطار الضروري الذي ينقذ استقلاله الأخلاقي فيحس بطريق غامضة أن بينه وبين هذا العالم تخلفاً وانقطاعاً معينين .

ج. ضعف الأساس المفاهيمي:

يرى ابن نبي أن هناك غياب للمفاهيم والأفكار في حس المسلمين، وخاصة العلاقة التي تنظم بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، حيث تبقى الفكرة معزولة ومحايدة، وبالتالي فقدانها لفعاليتها، فإن الفكر في المجتمع الإسلامي المعاصر يتسم بانعدام الفعالية، كما يتسم الفقر حتى في الأفكار نفسها، في الوقت الذي تمثل فيها الأفكار الثروة الوحيدة التي يعول عليها، فالعالم الإسلامي أصبح مجرداً من المفاهيم الصحيحة في وقت تحتاج فيه المفاهيم كسلاح في مواجهة الغرب، وأصبحت الأشياء التي نحتاجها نشتريها من مجتمعات قوية مفاهيمياً .

د. الفوضى والتمزق الفكري:

يرى "بن نبي" أن العالم الإسلامي لا يعيش منغلقاً على ذاته، فهو جزء من مجتمع عالمي، يبيعه الأشياء، ويفرض عليه في الوقت نفسه مقاييسه، ويرغمه على أخذ معاييره الخاصة به، وعلى تمثل أفكاره حسنها و رديئها، فيصبح تطوره مشروطاً بهذه الرابطة المادية، وقد كان موقف المجتمع الإسلامي من ذلك اعتبارها إلزاماً في الحقل الاقتصادي، وفوق الإلزام في المجال الفكري، فهذا الرد لكي يتمكن من تحمل الثقل الساحق لكم الأشياء التي أدخلها في حياته، ولكي يستوعب الضغط الضخم التي تهدد شخصيته وبقائه وفي مواجهة ذلك، اتجه العالم الإسلامي إلى التأقلم مع أفكار شديدة الأصالة بالنسبة إلى وسطها الأصلي، ولكنها في وسطنا غريبة، حيث نجهل تاريخها واستعمالها، فتم تأييد بعض الأفكار التي لفظت في عالمها الأصلي كالماركسية، فأدى ذلك إلى فوضى في عالم الأشياء وعالم الأفكار، كعالمين لا مجال في داخلهما لأي تنظيم فيقع التمزق الفكري لدى الإنسان المسلم بين الرغبة في الاندماج في عالم زمني هو مرغم على الحياة فيه، والرغبة في إنقاذ عقيدته التي يعرف مدى قيمتها.

هـ . الاضطراب:

يذكر "بن نبي" أن الفوضى في الأشياء والأفكار يكون من تبعاتها الحتمية انعدام الأمن في المجتمع، والاضطراب في الأرواح، فالفوضى الفكرية تنتج الاضطراب الأخلاقي ويترجم ذلك بالسلبية في التعامل مع التراب والوقت، وأيضاً نرى من المسلمين من يكتب أن الإسلام أصبح شيئاً فات أوانه، ويتعين استبداله بما يحل محله، وهذا يكون مواجهاً للمسلم الذي ينادي بالعودة إلى الإسلام العملي، بوصفه الوسيلة الوحيدة للنجاة، إنهما قطبان متقابلان في حياة المجتمع الإسلامي المعاصر: القطب الفكري والعاطفي، وكل هذا النشاز، وعدم الانسجام من شأنهما أن يضيفا مفعولهما النفسي للاضطراب الأخلاقي السائد في المجتمع وهذا الاضطراب يترجم بدوره في سلوك الأفراد، وهذا ناتج عن وهن في الرأي أو التطرف في وجهات النظر حتى يؤول الأمر ببعض الأفراد إلى الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية بدافع من اضطرابهم .

II. الاستعمار والقابلية له:

يرى ابن نبي أن الاستعمار هو الذي أدى لضعف المسلمين، إنه عامل خارجي حيث يدرسنا دراسة واعية لكي يبقينا في الهزيمة، حيث " درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة وأدرك منها موطن الضعف، فسخرنا لما يريد فالاستعمار يراقب حركة الأفكار، فكل ما يمر في العالم الإسلامي من أفكار يهمه بصفة خاصة، بقدر ما يهمه البترول، بل أكثر من ذلك بكثير وهو يراقب حركتها باهتمام بالغ، وله فلسفته الخاصة إلى تتمثل في التخلص من الأفكار التي تضايقه، وفي الانحراف بها عن مراميها، بتوجيهها خارج المدار الذي أراد أصحابها استبقاءها فيه .

و"بن نبي" يتفرد في بيان ما هو أخطر وأشد في عملية إضعاف المسلمين، ألا وهي القابلية للاستعمار، لأنها عامل داخلي في نفوسنا، حيث نتقبل كل ما يطلقه المستعمر علينا بدون وعي وإدراك منا، فما يطلقه من مصطلحات ضدنا نتقبلها ونرددها على أساس أنها من المسلمات الصحيحة، وما يصفه لنا نعتبره صحيحاً وجيداً، حيث نقيس أنفسنا بمقياسه، وذلك نتيجة الضعف في شخصيتنا الفكرية والنفسية، فنحن نخدمه باستغلاله لما في أنفسنا من استعداد لخدمته، فنفوسنا معلولة من باطنها، بها معوق داخلي يمسكها عن التقدم، ونحط من قيمة أنفسنا بأنفسنا، فنحن مسخرون لهم بحيث أصبحنا أبواقاً يتحدث من خلالها، وأقلاماً يكتب بها، ومسخرين له بعلمه وجهلنا. [4]

- هكذا حاول مالك بن نبي تشخيص حال الأمة المريضة والخروج بجملة أسباب طالبا بذلك الوعي بالاهتمام بأسباب المرض لا أعراضه والأمة الإسلامية اهتمت بعكس ما ذهب إليه وهو ما جعلها تتذيل الدول المتقدمة (متخلفة)، ومن هذا الأساس يكون وضع أولى لبنات صياغة نظريته في التغيير الاجتماعي .

3. فحوى نظرية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي :

لقد انطلق مالك "بن نبي" من منهج محكم تناول من خلاله الفكرة الدينية التي تعتبر كفرضية أولية ليصل إلى نتائج لازمة عنها، فكانت الوقائع تبرهن عن صحة وسلامة مبدئه، كما نجد أن رؤيته للدين قد تعدت الرؤية النظرة الروحية الوجدانية لتدل عن قانون في الحياة البشرية . " فمالك بن نبي " في كل أعماله إلا وسلط الضوء على هاته الفكرة .

فيتخذها أساس يعمل به لفهم وتعليل الحوادث الخاصة بالإنسان وواقعه، حيث نجد مالك بن نبي في مواقفه المنتشرة عبر أعماله المختلفة، في مشكلات السياسة, أو الحضارة, أو المجتمع, أو الثقافة، وفي جميع عملياته الاستدلالية الاستنتاجية منها أو الاستقرائية ينطلق ويصل من مبدأ هو: دور الفكرة الدينية في البناء الاجتماعي والحضاري، وفي تكوين الدوافع الحركة للقدرات العقلية في الإنسان ...." ولما كانت الفكرة الدينية هي الأساس الأول الذي ينتقل المجتمع به من حال البداوة إلى حال الحضارة، نجده قدمها في المعادلة التالية : الحضارة = إنسان+ تراب+ زمن .

فوجود هذه العناصر متكاملة إضافة إلى الفكرة الدينية التي تعتبر المحرك الأساس للحركة الاجتماعية (التغيير)، فإنها تسوق المجتمع إلى نمطين مختلفين، فإما تؤدي إلى رقي وازدهار إذا توفرت كامل الشروط الضرورية، وإما تعمل على السير بالمجتمع نحو التخلف والانحطاط .

من خلال معادلة الحضارة نجد بان السلطة الكاملة للإنسان، وان المسؤولية العظمى تقع على عاتقه، فهو من يجعل من التراب والزمن خادمين له . وهذا أكده بني نبي حول التطور الذي يشهده المجتمع على الصعيد النفسي والاجتماعي، فيميز ثلاثة مراحل وهي :

1. مرحلة الشيء .
2. مرحلة الشخص .
3. مرحلة الفكر .

فرجحان هذه العوامل هو الذي يميز كل مجتمع عما سواه ، كما يؤكد" بن نبي عن دور الأفكار في حركة المجتمع" فالمجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بنقص في الوسائل المادية (الأشياء) وإنما بافتقار للأفكار.

إذن فكل جماعة تتغير وتتحرك، وتسعى دوما إلى تغير شروط حياتها نقول عنها مجتمع، أي انه نتيجة لتوافق بين العوالم الثلاثة (الأشخاص والأشياء والأفكار) يحدث تغيير، وتظهر علاماته في الحياة الاجتماعية، والنقطة الأولى في مسار هذا التوافق هو ما يطلق عليه "مالك بن نبي" نقطة الميلاد. حيث يحدث التغير في أوضاع المجتمع مخالف لما كان عليه في حالته الأولى وينعكس هذا التغير على خصائص العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، ولما كان التغيير ناتج عن مجموعة العوامل فان المجتمع الذي يدخل التاريخ ويحافظ على مكانته بين الأمم الأخرى يكون بالضرورة قد حافظ على عناصره الثلاثة وهي :

1. حركة مستمرة .
2. إنتاج دائم لأسبابها .
3. غايتها.

فإمكانية التغير متوقفة فقط على توفر العناصر الأولية في المجتمع الإسلامي، مع الاحتفاظ بالعقيدة الدينية، بل هذا التغير مرهون بالقيمة التي يمتلكها الإنسان في جانبه الفرداني والجماعي، في معادلة الحضارة، حيث يعبر عنها وجوده الفعال ودوره الرئيسي في التاريخ البشري، وذلك انطلاقا مما رآه "بن نبي" حين ارجع الحركة الاجتماعية والتاريخية إلى حركة الإنسان . فيقول في ذلك : " إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ ."

إن الإنسان كمخلوق كرمه الله بالعقل وجعل فيه الروح والغريزة، وخلق فيه سمات التأقلم والقابلية للعيش في مختلف الظروف، كان دائما يمثل حجر الزاوية في عملية بناء أو تغيير حضاري، وذلك نظرا لما يمتلكه من قدرات ودوافع واستعدادات تؤهله دون غيره من الكائنات الحيوانية الأخرى، لانجاز مثل هذه الأعمال التاريخية الكبرى مستقبلا ، مثلما كان له ذلك في الماضي .

لقد استطاع بن نبي أن يصور الحالة الراهنة للمجتمع الإسلامي، وما يتوفر عليه من إمكانيات وشروط تؤدي به بالضرورة إلى دخول مسرح الأحداث، وان دخوله هذا مشروط بقوة تحديه للمعوقات التي ظل سنينا طويلة يرزح تحت رحمتها، أي أن العالم الإسلامي اليوم هو في نقطة يجب أن يتجاوزها نحو العمل الجاد والمثابرة والتغلب على كل التحديات التي تقف في مساره التقدمي، لان ذلك ممكن والتغيير طرق متصلة حلقاته تسوده الأفكار وتصنعه الأيادي والسواعد .

فالمجتمع في حالته الراهنة وما يملكه من مقومات مادية وشروط أولية، تكون من غير جدوى إذا لم يتحول إلى واقع ملموس يمس الحياة الاجتماعية للأفراد، ولا يكون التغيير إذ لم يستقر في النفوس معناه، وكان الإيمان به – وهو ما يعرف بإرادة التغيير – التي تعتبر أهم شرط لبلوغ التغير، وهذا الأخير ما هو إلا ترجمة بعدية لها، حيث أن الإمكان الحضاري الذي يتمثل في الوسائل والإمكانيات المادية، ليس سوى نتاج للإرادة الفذة التي تحدد الهدف، وهذا ما أكده "بن نبي" في أن الحضارة تلد منتجاتها، ولا يكون العكس حيث شخص وضعية الأمة الإسلامية المتدهورة وتجاوزها إذا اعتمدنا في بناء حضارتنا على وسائل الحضارة الغربية، لان الحضارة ليست سلعة تباع في العلاج الجذري لمشكلات التخلف ليس في مواجهة هذه المشكلات بوسائل جاهزة أنتجتها حضارة شقت طريقها، وخرجت من المرحلة البدائية المتسمة بمنطق الأشياء ونفسية الشيئية، بل لا بد من مواجهتها بإنشاء حضارة توظف الطاقات الاجتماعية الموجودة، مهما كانت الظروف وتنشئ تدريجيا وسائلها الفنية بقدر ما تتخلص من رواسب ومعيقات تخلفها . لقد ربط "بن نبي" حاضر المجتمع في حالته الراهنة بالماضي الذي انطلق منه، وابتدأ منه مسيرته التغيرية، ليوجه هذا الدخول إلى التاريخ بعد إحداث تغيير في البنية الاجتماعية لهيكلة المجتمع، أي أن هذا الإقلاع الحضاري، متوقف عن مدى استفادة المجتمع الذي تكلم عنه بن نبي من تجارب الأمم الأخرى في مثل

الحالة التي كانت لهم الفرصة سانحة، من خلال خلق التوتر الذي ينشا عن توفير عوامل التحول، بمعنى إيجاد المؤهلات التي من شانها جعل المجتمع ينشد التغيير، وخلق حتميته داخل الأفراد فهو مجموعة البواعث الصادرة عن الاستعدادات المتاحة للأفراد لتحقيق هدف منشود يكون للتجربة التاريخية دور في تفعيله وتجسيده.[5]

- تعتبر الفكرة الدينية العامل الرئيسي الذي يعمل غلى تفعيل تغيير المجتمعات من حال إلى حال آخر وفي هذه الحالة فهي تشق بنا طريقين مختلفين فإما أن تأخذ إلى التقدم وإما العكس وهذا يبقى رهن المجتمع وكيفية ممارسته لها وعليه فان عملية التغيير لا بد أن تنطلق من المجتمع ذاته بتوفر العوامل المذكورة .

4. شرح ثلاثية مالك بن نبي حول التغيير الاجتماعي :

أ. **الإنسان:** إذا كانت أفكار مالك بن نبي تدور في مجملها في فكرة التغير الاجتماعي التي تبدأ من الإنسان تنتهي إلى الحضارة، فان أول ما يجب تغييره هو الفرد في حالته الطبيعية التي خلق عليها، ثم يشرح "مالك بن نبي" كيفية التعايش بين الإنسان والتراب والزمن، على الصعيد الاجتماعي فيرى أننا وجدنا في مكان معين، وفي زمن معين نشاطا متآلفا من الناس والأفكار والأشياء دلنا ذلك أن الحضارة قد بدأت في هذا المجال، وان تركيبها قد تم فعلا في عالم الأشخاص. إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع .

ولأهمية الإنسان في بناء الحضارة، يأتي اهتمام مالك بن نبي ببناء الإنسان فبناء الفرد وفق فلسفة ذات جذور أصالية و أبعاد عصرية، و بناء الفرد كالبناء الطبيعي، يستلزم عامل الزمن، و أسلوب التدرج، و عالم التوعية والتأصيل، يقول في هذا الصدد" :فالبناء هذا كالبناء الطبيعي للكائن الحي، فالطبيعة لا تبني في الإنسان أصبعه أولا، ثم شعره ثانيا، فالقضية إذن في الصورة النهائية ليست ترتيب القيم الاجتماعية ، و لكن في بنائها متضامنة متكاملة كبناء الكائن الحي الذي ينمو في جميع جوانب في وقت واحد حتى لا يكون لو مثلا رأس رجل، و أعضاء جني." و يؤكد مالك بن نبي على بناء الإنسان منذ فجر التاريخ هو مهمة الرجال، فالطبيعة لا تلد لنا كائنا جاهزا، كما أن الله لا يصنع كائنا، لأن الحكمة الإلهية أودعت السنن و القوانين التي تغير الإنسان من فعل ذاته، و لقد كانت صيحة مالك بن نبي كمثقف دوما "يجب أن تصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في بناء أهدافهم, فالإنسان هو محور الفاعلية في حركة الحضارة الإنسانية محدد بالعقل الفكري، وتكوينه الثقافي الذي استمده من بيئته الحضارية،" فكل تفكير في مشكلة الإنسان بالنسبة إلى لحظة في الحياة هو في أساسه تفكير في مشكلة الحضارة . وتحتل الثقافة بالنسبة للإنسان المرتبة الرئيسية في بناء شخصيته، لأنها الرحم الذي تنمو فيه أفكاره وتطلعاته وتتحدد فيه قيمه وأهدافه. فالثقافة التي تقوم على أساس إسلامي هي التي تحقق التوازن في داخل الإنسان وتعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلاله بشكل متكامل أي أن إصلاح الثقافة يعني إصلاح

الفرد والمجتمع. و من هنا يمكن أن نجمل القول بأن التقدم الحضاري يعتمد على دور الإنسان وفعاليته في المجتمع وذلك لأن القضية ليس قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية في أنفسنا، أن علينا أن ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول هو الإنسان.

ب. التراب: وهو يعني كل ما على وجهها وفي باطنها من ثروات .وليس المقصود بالتراب هنا البحث في خصائصه وإنما البحث في قيمته الاجتماعية بكونه عاملاً من عوامل النهضة الحضارية فكلما ارتفعت قيمة الأمة وتقدمت حضارتها كلما ارتفع قيمة التراب، وكلما تخلفت الأمة أصبح ترابها على قدرها من الانحطاط . وهذا التراب من ناحية يتصل بالإنسان في صورة الملكية للأرض فيكون شيئاً حيوياً أما من ناحية أخرى فإنه يتصل بالإنسان من الناحية العلمية والسيطرة الفنية .

ج. الزمن: وهو يقصد به قيمته عند الإنسان وليس المقصود الزمن المطلق . ويرجع ازدهار الحضارة الإسلامية السابقة في سرعة مذهلة إلى تقديس المسلمين للوقت آنذاك، فهو يمر على السواء في كل ارض على كل شعب وفرد ولكنه في مجال ما يصير (ثروة) وفي مجال آخر يتحول عدما. فيجب اغتنام الفرص من الحياة من اجل العطاء فإدراك قيمة الوقت فردا وجماعة هو إدراك لقيمته التي لا تعرض في العملة الوحيدة التي لا تسترد إذا ضاعت " أن العملة الذهبية يمكن أن تضيع وان يجدها المرء وان يجدها المرء بعد ضياعها، ولكن لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت ." فكل منتج من المنتجات الحضارية تتكون من هذه العناصر الثقة . ويرى مالك أن حتى فإنها تعتبر منتوجا حضاريا ثم يقول : " فانا إذن حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس على أن أفكر في منتجتاها، وإنما في أشياء ثلاثة . ونستنتج أن الحضارة هي بناء مركب اجتماعي لثلاثة عناصر وليست عملية تكديس المنتجات الحضارية . وهذا المفهوم الأول عند ابن نبي الذي يعتبر أن الإنسان هو محور الفاعلية بين العناصر الأساسية للحضارة . فإذا كان هذا الإنسان لابد أن ينتقل من ذاتيته إلى الفرد الاجتماعي الحضاري من عالم الأشخاص فان ذلك لم يتحقق بمعزل عن عالم الأفكار التي تحسن استخدام الوسائل وكذلك لابد من وجود عالم الأشياء التي تمزج للأفكار فرصة إبداع الصناعة والإنتاج و للإنسان رفاهيته وأمنه .

ولهذه المعادلة شروط معينة حتى تتفق مع واقع التاريخ. فالتاريخ يدلنا على أن المركب الذي يتدخل في تركيب هذه العناصر الثلاثة هو الدين كعامل مركب للحضارة لان هذه العناصر الثلاثة ليس كافية لتشكيل الحضارة بل لابد من المحرك الذي يحول هذه العناصر من حالة خام جامدة إلى حالة متحركة صانعة للحضارة، وهي العقيدة الدينية بمعناها العام.إن مالك يطرح الإسلام كمُلهم لقيمنا وقادر على استعادة دور الإنسان مبرأ من ثقل الحضارة الإمبراطورية، وهو يرى أن الإسلام لا يقدم إلى العالم ككتاب وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير إنسانية وهو من هذا الجانب بمنح الفكر الإسلامي الحديث نظرة في عمق التجربة الحضارية تقيله عثرات التقليد والتقوقع في معطيات الحضارة الغربية والعالم الصناعي المعاصر ."فحينما نأتي بالحلول المناسبة للمشكلات التي تواجهها هذه العناصر فإننا نكون قد حققنا الانسجام مع سير التاريخ مما يؤدي في النهاية إلى الحضارة.[6]

- توصل "مالك بن نبي" إلى طرح ثلاثية معادلته حول الحضارة = الإنسان + التراب+ الزمن كفرضية مبرهنا عليها من خلال القول بضرورة اجتماع هذه الأخيرة من اجل إحداث التغيير الاجتماعي البناء للمجتمعات الإسلامية، لكن هذا لا يتأتى إلا من خلال الإدراك الحقيقي لمعنى هذه العناصر وامتزاجها مع الفكرة الدينية .

5. رصد قانون الدورة الحضارية كنموذج للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي :

يؤمن "مالك بن نبي" بنظرية الدورة الحضارية، ويرى أن ابن خلدون هو أول من استنبط فكرة الدورة في نظريته عن الأجيال الثلاثة.[7] والحضارة عنده تنتقل من مكان لآخر، ومن شعب لآخر، فإذا أنهت دورتها الحضارية في مكان ما انتقلت إلى مكان آخر، لتبدأ دورتها الحضارية فيه من جديد طبقا لتركيب عضوي تاريخي جديد .

ويرى أن الحضارة :«تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر. وكل دورة حضارية عند ابن نبي تختلف عن سابقتها ولاحقتها، فهي محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين، وهي تهاجر وتنتقل بقيمها إلى بقعة أخرى، وهكذا تستمر في هجرة متواصلة لا نهاية لها، لتتركب من جديد من الإنسان والتراب والوقت. وتتمثل أطوار الدورة الحضارية في:

الطور الأول: يشكل هذا الطور المرحلة الأولى من بداية المرحلة التاريخية للدورة الحضارية، وهو ما يطلق عليه ابن نبي مرحلة الروح، وهي تمثل خطا تصاعديا، إنها بداية مرحلة الفكرة الدينية التي يجد الإنسان الفطري بكل غرائزه كما وهبته إياها الطبيعة، فتتولى تنظيمها وترويضها وليس القضاء عليها، وفي هذه المرحلة يتحرر الفرد من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع لمقتضيات الروح التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، وهنا يمارس الإنسان حياته الجديدة حسب قانون الروح . وهذه المرحلة قد كانت دينية بحتة تسودها الروح، وابتدأت منذ لحظة نزول كلمة" أقرأ "في غار حراء على محمد إلى غاية موقعة" صفين "بين علي ومعاوية عام 38 م.[8]

الطور الثاني : يمثل هذا الطور المرحلة الثانية من الدورة الحضارية، وفيه تستبدل سلطة الروح بسلطة العقل، وتفقد الروح تدريجيا سيطرتها، ويتقدمها العقل للقيادة والسيطرة على جميع الخصائص والملكات.

وهنا تبدأ الحضارة الإسلامية بالتوسع والانتشار فوق الأرض، وكذلك بظهور العلماء أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن رشد إلى غاية ابن خلدون، وعرفت هذه المرحلة خروج الحضارة من عمق النفوس كقوة دافعة إلى سطح الأرض، تنتشر أفقيا من شاطئ الأطلنطي إلى حدود الصين. ومرحلة العقل هذه في نظر "بن نبي" تمثل خطا أفقيا مستقرا يأتي مباشرة بعد الخط الصاعد الذي كانت تمثله مرحلة الروح، هذه الأخيرة تصبح في هذا الطور لا تسيطر على الغرائز تدريجيا، وهو ما يؤدي إلى انخفاض في مستوى أخلاق المجتمع ، ونقصا في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية.

الطور الثالث: إن هذا الطور يمثل مرحلة الانحطاط وسيطرة الغريزة واختفاء العقل، ولم تعد عناصر فيما تعد عناصر الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة وتصبح عناصر: « خامدة ليس لها فيما بينها صلة

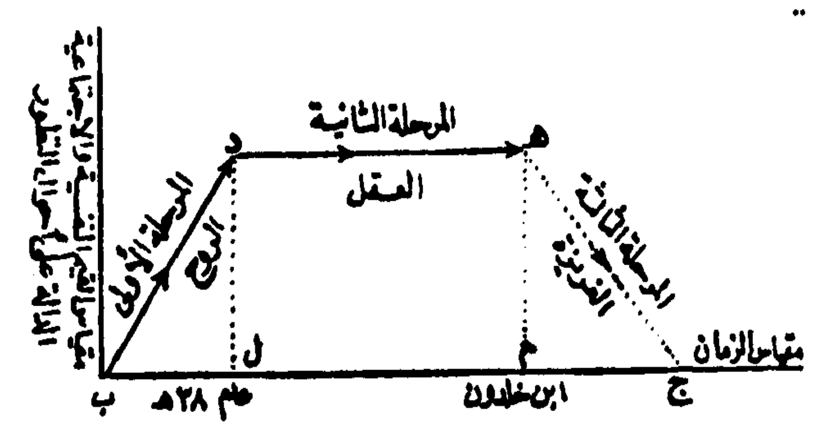
مبدعة». وفي هذه المرحلة تسود الفردية، وتتفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية نهائيا نتيجة تحرر الغرائز، وبالتالي فإنها تمثل مرحلة الانحطاط، الذي هيأ في المجتمع الإسلامي ظروف القابلية للاستعمار والاستعمار.

وهذا الطور الثالث بالنسبة للحضارة الإسلامية يمثل فترة ما بعد ابن خلدون، والذي يتميز بالانحطاط والتخلف بسبب تراجع تأثيرات الروح والعقل:« وفي الحالة التي تنكمش فيها تأثيرات الروح والعقل، تنطلق غرائز الدنيا من عقالها، لكي تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية».

ومن ثمة تعد هذه المرحلة هي الخاتمة لكل حضارة لخلوها من الروح والعقل، إنها قاعدة عامة لا تشذ عنها أي حضارة. وفي هذه المرحلة تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية، ويسود المجتمع الانحلال، ويبدأ في الدخول في ليل التاريخ، وهنا تنتهي دورة الحضارة.[9]

إذن مالك بن نبي يرى أن أي حضارة تقع بين حدين اثنين :الميلاد والأفول، والمنحنى البياني يبدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد، ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل، وبين الطورين يوجد طور وسيط هو :الأوج، وهو طور انتشار الحضارة وتوسعها.[10]

- الشكل: 01 [11]



خاتمة:

تعتبر نظرية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي من بين المحاولات العربية الإسلامية التي حاولت تفسير واقع العالم العربي والإسلامي من خلال صياغة نظرية منافسة للنظريات الغربية التي أنتجت في مجتمعاتها .

وتحاول فرضها على المجتمعات الإسلامية وتبقى هذه المجتمعات أي العربية تجني فشل النظريات الغربية، لتبقى هذه الأخيرة (محاولة مالك بن نبي) تعرف نجاحات عند بعض المجتمعات الإسلامية

مثل ماليزيا وغيرها من البلدان التي أدركت مدى سلامة تطبيقاتها على بيئتها .

الهوامش:

[1] لخضر، حميدي (2004-2005). **"مشكلة التغيير عند مالك بن نبي".** مذكرة ماجستير. قسم الفلسفة. جامعة الجزائر. 21 .

[2] بن نبي ، مالك (1986). **ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية** . ترجمة شاهين عبد الصبور . دمشق سوريا، : دار الفكر. 42، 43(بتصرف) .

[3] لبصير ، عبد المجيد (2010). **موسوعة علم الاجتماع ومفاهيم في السياسة والاقتصاد والثقافة العامة**، عين مليلة، الجزائر . دار الهدى. 449 .

[4] العقبي ، حسن موسى محمد (2005). **"مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة".** مذكرة ماجستير. قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة. الجامعة الإسلامية غزة. 179-183 .

[5] اخضر ، المولود (2008). **" مكانة الدين في فكر" مالك بن نبي" ودوره في حركة التغيير الاجتماعي".** مذكرة ماجستير. قسم الفلسفة. المدرسة العليا للأساتذة . 46- 51 .

[6] ميهوب ، العابد (2013-2014). **"الفكر التربوي عند مالك بن نبي".** رسالة دكتوراه. قسم العلوم الاجتماعية. جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر. 169-173 .

[7] ارفيس، علي (2011-2012). **"إشكالية النهضة بين مالك بن نبي وسيد قطب دراسة- تحليلية مقارنة – ".** مذكرة ماجستير. قسم العلوم الإنسانية شعبة الفلسفة. جامعة الحاج لخضر باتنة الجزائر. 138 .

[8] بن نبي ، مالك (2002) . **وجهة العالم الإسلامي.** ترجمة شاهين عبد الصبور . ط2، دمشق. دار الفكر. 27.

[9] ارفيس، علي (2011-2012). مرجع سبق ذكره. 139-140 .

[10] بن نبي ، مالك (1986). **شروط النهضة.** ترجمة مسقاوي, عمر كامل و شاهين عبد الصبور . دمشق سوريا. دار الفكر. 66

[11] اخضر، المولود (2008). مرجع سبق ذكره. 178- 179.